أحمد سواركة

هواء سري

شعر

الهيئة العامة لقصور الثقافة
اقليم القناة وسيناء
ثقافة شمال سيناء

ابداعات
شمال سيناء

المراسلات : مطابوعة ثقافة شمال سيناء ت : ٣٤٠٧٩٢

كلمـة الثقافـة

من بوابة مصر الشرقية ، من أرض سيناء ، ومع إشراقة الشمس على حدودنا يشرق الإبداع والأدب والثقافة في محاولة لاستشراف المستقبل الجديد الذي يتمتع بالتنمية الشاملة من أجل تغير الخريطة السيناوية الصفراء إلى دلتـا أخرى يغيرها ماء النيل ليكتسي لونها بـاللون الأخضـر ، وهذا في حد ذاته تخطيط وفكر وإبداع ناتج عن ثقافة تتمتع بالحب والانتماء لتأكيد الحضارة المصريـة الضاربـة فـي أعماق الزمن .

من هنا كان اهتمام الثقافـة بـالتراث والمـوروث والأدب قديمه وحديثه للحفاظ على الهوية ، وملاحقة كـل تقدم .

وها نحن اليوم نقدم فكراً جـاداً وإبداعـاً أصيـلا لشعراء سيناء الحبيبة ،

ونتقدم بخالص الشـكر **للأستاذ الناقد / علي أبو شادي**
رئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة .

والأستاذ الفنان / عبد الرحمن نور الدين رئيس الإقليم

للاهتمام الخاص بسيناء وتشجيع المبدعين والحركة الثقافية في ربوع سيناء ، كما نتقدم بخالص الشكر للسيد اللواء / **أحمد عبد الحميد محافظ شمال سيناء** لدعمه الدائم للحركة الثقافية من أجل ترسيخ وتأكيد دور الثقافة على كل أرض الرسالات

ومع أطيب تمنياتي بدوام الازدهار والتقدم في شتى مجالات التنمية على أرض مصرنا الحبيبة وخاصة التنمية البشرية تحت القيادة الحكيمة

للرئيس محمد حسني مبارك

محمد أحمد عبد العظيم

مدير ثقافة شمال سيناء

هواء سري

الدموع المبكرة ....

كان هواء من البحر يغرق فى قوارب بعيـــدة ، وأنت بجلبة سعيدة ترشدين نظـــرات مجنونـــة فـــى سقف أحلام تركض ، تفندين فى الشهقة ما يكفـــى لرفع طرقات فى القلب ، تتآمرين ..... !! كأنما هـذا العراء ابنك.

لهجاتك العديدة ، وعذر آخر ينتحل شيوعك . وما مـــن مكان يقينى ذاك الجمر المتساقط إلا نجوما ضعيفة ، وبضـع غيمات .

ووجهك الهائل يمضى ... ، يحدث فى القلب فتوحـــات كثيرة . كان لا يخطىء ، ويشكل التفاهـــات كمـــا يقتضـى الحنين ، أو يزرع أنفاسك على منـــابت الكـــلام ســطورا ، تزورنى دائما ... دائما أينما وليت .

وعبر المدى ، عبر متاهاتك التى ترش الفصـــــول فـــى الغرفة ، أغفو مريضا بالنبض ، مريضا بجفـــاف الحلـــق ، وتتالى الأنفاس مع بهجة تقسّم سماء الســـقف عموديـــا ، تنهب من فصائل سرية قبلات نشطة .

وبك جهات ممنوعة ، تتدخل فى السجاد ، تركن كيسا

من القطيفة على قاعه . إن شتاء بنجمات ثلاثة يتهيّأ لنـــا ،
والأقفال الأقفال مرصوفة كما دهور بيننا .

[أستطيع ....]
فكّ أصابعك عن الهواء
سأكتب نحو قلبك صفحات عن الحب
ويتحرك السحاب ....
....
....
....

إذاً ، لن أبرأ منك
فقد تعشّقت الجهات بصوتك
صار المدى طريدا
ويبحث عنك .

تنامين بعمق ، لأنك قضيت ليلة باردة تحدّثين الشبابيك عـن مجهود خرافى بذلتيه للامساك بالماضى . صنعت كوبين من الشاى وفنجان قهوة لغريب ، وكتبت حروفـا مائلـة علـى مساحة صغيرة من الزجاج .

وكساحرة أخرجت من صندوق فارغ خطابات تنهج .

ولأنك أغلقت الحجرات مبكرا ، جاء الشتاء ، جاء رجل بمعطف ثقيل ، كان يحب انتماءك لاسمة وتحبيـن نزعـاتك المهموسة خلف الزحام .

نعم ، تحدثينه بلكنة وتحدثينى بأخرى .

إن فى ليلة واحدة ذبحت عصافيرا كثيرة فى خط مستقيم ، ثم بكيت وأنت على أهبـة الضحـك . نفخـت – بالرياح المحبوسة فى صدرك – فصائلا كثيرة من الكلام .

أجنّ ، لأن شفتيك فى المقابل .

وعندما تعترفين ، دائما تضمّين رأسك بين كتفيك ، ليسقط الشكّ ، ويغتسل كل ما حدث بانعطافك نحو الكلام ، نحو مرورك المهيّأ دائما بلا حيطة .

أنت يا ملعونة تدسين خمرا فى شفتيك ، لتسقط اللـــذة فـــى نفسى ، وأنا كنت لا أصغى ... أنا كنت أتأمل ما يدور حــول عينيك من رقص أو مباغتة .

باحات تطلّ على أهوائك الفالتة من كل مدارات الدنيا ، هى التى تضيئنى عندما يكون الظلام فى يفوعته ، ويأتى حصارك معمولا كما يجب .

ودونما حساب ، تعرفين كم عدد الخطوات اللازمة لقتل الشك ، ونشوء المرح فى مروج الذاكرة ، أو علـــى آخــر تخوم الحلم .

صرت فيك يافعا ، قلقا فى هذا البعيد الذى يخبّ فـــى كينونة رسفت فى مشقات صغيرة ، أسوي مفالتا تســـتطيع ولا تستطيع ، فجهاتك التى تهبّ من جبين الغوايـــة دافئـــة وتقتل القلق .

أصير ضـــدك ، فتتلاشـــين مـــع الـــهواء والأصـــوات والذكريات والأحلام ، ثم بسطو متعادل تفركين جهات أخرى فى قمصانك .... تعودين بلا ما كنت .

ووحدى أقبض عليك بتهمة واحـــدة ، ثــم أنفيــك صــوب المراعى أو النسيان ، وأستسلم لبغاء الذاكــرة حيــن تــودّ أعذارك الزئبقية .

أعصد هجرتى فى القلب ، فيستمر المرار ، وتحاصرنى فراسخ الوهن ، فأسرق منك كذبة أو اثنتين لأدفــــع نــهارا جديدا أمامى بلا ضوضاء أو حذر .

....

....

فقط تتدافع أهوال فى رأسى ، فتستحقين الحب .

الضواحى التى تهجع فى أنحائك تنأى ، مثلمـــا أتـــابع فــى سرحة الظهيرة اجتياحك للمدى وقد كان يهذى بلا نــــهايات إلا تلك المتعامدة ككاهل يصدّ القلب عن الدفـــق . فرحيــل آخرك مبتهج فى سرو الحزن الذى يدهن صــوت الخفقــات بأمان تستطيع أن تنحل الوجه بطريقة غير فجائية .

أعرف سطو المسافة ...
كان الخراب يافعا فى الحجرة الموصـــدة بالغيـــاب ...
وكان الأثاث غائبا كذلك ، ولا نجمة رافقتنا .
عذرنا أرضية واهنة بفستانك الجديد ، وزعمنا أن مـــا نكلمه متعذر على الجميع ، لقد نشأ فينا فردوس فهرنـــهيتى ، عرفنا ما ينبغى ... ودليل يمنع نفسه من تتابع الأنفـــاس ... لقد كانت دماثة أنيسة ، تفلّق كلس الماضى بمـــا حـــول الثغر ، تعشّب السقف بما طرأ من الخوف وتفلت البهجة فى حرير الملابس السرية ، حين ساعدنا ذوبان الروح على نطق الأسماء [أسمائنا] بعد برهة صمت ، ثم اندفعنا كمـاء يغلى فى ماء ، نر اعش الشبق الطازج بأظافر كانت تـــهيج ...

كان ينبغى أن لا أفهم
كان ينبغى أن أخدّر الشوق إلى حين .
إذ أن الغياب مافارقنى وأنا حاضر بكل ما ينبغى
لكننى ، أحس بملكية الحيز الضيق بلا طائل ، أسائل ما برد من قلبك ، فتنادى الأنحاء موجوعة بتراخينا حول المساحة المخصصة للسرير .

هذا الجحيم الذى يجن ...
ومتروكة أنات القلب فى مطارح الصدفة ، تغدق علـــى
الآن جروحا غير رحيمة .
[اشراقة شمس ... أكشاك الحلوى ...وشارع طويل]
إن كيّا غير عاقل يطارد أعصابى من الأول ، مـــن يــوم أن
تأهّبت شدّات بجذر الهول تنفينى فى مساحة كونية لا يملــك
حدودها إلا جسدك
أنا وحدى
والحنين وحده ، نهرس المسافة بيننا ، فيجتاحنا ما كان
وأنت تعتقلين النبوءة فينا [أنا والحنين]
فلا نهدأ ، إننا متعبين .

منطقة الرعشة برعوياتها المنتشرة حول الطريـــق ، حيـــث
يصطاد القمر بضع ليال وحكايات . تتجمهر الغيــــوم غـــير
وحيدة . إن ما يطالعنى متأهب للحب ، يبلّل وجها شــــاملا ،
يشرّد الفصول فى هواء التبغ ، ويصغى إلى مشارف الحلـــم
وهيئات النبض المتردد فى سكون قد كان عبر

إننى أهوي مع السرطانات المبجلة ، نزحـــف بقشـــة ضعيفة تحت نور لم يصادفنا . حقول البكـــاء تنعـــم بمـــاء القطيعة ، تسترد أصنافا من أول الفراغ الممتع ... حيث لـــم تعد سخونـة كفك قد بدأت .

وفيضانات الأرق موسرة فى القضبان المهشمة .

روائحنا على المخدات ... رشّات الفوضى ... ونروّج ما فينا للفراسخ المهدومة .

شرفات ميتة ... ، نزعة الخريف الجوانية كبحر يراقب ضفيرة على الشاطىء ، ومثل أصوات تنم عن التعب : كان حديثنا .

دهستنا جلبة البيت وأعوام البنايات الحديثـــة ، رامــت الوحدة أرجاءنا ، فكل النظرات البسيطة فى مأمن عنا ، لقــد شهقنا بلا نظير ، نحاصر الممكن ، ثم نثقب فائض الأبديـــة ونحن فى نعاس الظهيرة .

عديدا صار ما يشبهنا ، لكن ، شاعت الفتوحات فى عموم أيامنا ، رشقنا حجارة غير متساوية فى ماء السكون ، وبرفق ، تمادينا فى تمادينا ، فعرش الممكن فى بيت المستحيل ، وكان علينا أن نقبل من جهامتنا ما تبقى ، لنلتقى فى مآزق سهلة ، مآزق يكون لها طابع الحنين أو المراودة ... حتى هذا فى بقائه هكذا ، يعتد بسياقة المنعدم والمتكبر فى آن ...

فعلى بعد مرفا من الوجد ، كان السكون يحرّر لحظات
متعاقبة من لذات رومانتيكية .

يفهمنا الشتاء ، ولا يغيب الماضى لأنه حزين ويعرف طرقات فى القلب ضللتنا كثـــيرا ، ولــم تشـأ إلا أعبــاؤك المتورطة – دائما – فى المثول بلا سبب .

أعتقد أنك بعيدة

أعتقد أنك قريبة

أعتقد ، وأنا بلا طمأنينة حاضرة : أن عقبان المهمـــة عاقلة ، بحيث سنعدو فى أنفسنا أميالا طويلة من السنين .

هذا جدير بك .

يتهافت البطىء نحوى ، وأطرد منه ما يراوح الخفقة المثبتة فى هناء لحظة تعرقلت فى الذاكرة .



المكان

[أعنى ماذاقه القلب]

إنه مكان سرى ، ويستطيع أن يشرك نفسه مع الأحلام .

جذوع شجر قديم ، كانت تهجع فى قمراء رءوم ، وكثيب عالٍ ينعم بغروب كنت أعتقد أنه مثالىّ ، وبعض أشياء لن أسميها إلا بعد الخروج طويلا من هذا البطش ، بطش لا نظير له ، ويتعلق بطبيعة الصحراء وغرف الخلوة .

كان المكان لا ينبغى له الحزن ، إلا أنه بحفاوة تخيّلنا ، ونبهنا إلى أن الصحراء مغرورة وتمد لنا فى أعماق عزلتها إعصارا قاسيا ، لم يكن ليتركنا لولا انتمائنا لطاعتها .

حدثتنا الصحراء عن السّلالات التى هربت التاريخ ،
فسرت لنا كل شىء ...
وأعطتنا مقاسات حقيقية للرعشات التى كنا نتوقعها .

متاعب حقيقية نهضت بـــدون اســتئذان ، فالمســافة المسافة ، لا تعذر منبهات الحب وقسوته .... لا تعذر كـــل هذا التعذيب ، على أنه أهون من وطأة أن لا أراك من بعيد

كنت فى زيارة لجارات بعيدات ، وكنت أعذّب مســارات روحى بالحركة بين الأبواب ، وعندما تباعدت قمة الكثيـــب عن أشعة الشمس ، كانا ساقاك يناهزان طرد النور بطريقـة فجائية .

ومن على ذلك المنأى ، دق قلبى .

لم تكونى فى الغيب ، بل كنت تدخلين سريعا فى حجـــرة مغلقة وتتأملين المساء حين كنت – أنا فيه – موجوعا بـــلا سبب .

دهس عارف يبين بيولوجية الصدر . إنني أبكي مـــع طيور متألمة كانت لسرب يهجّ منا . خذلنا الوقت ... الوقت المسافر ، نحّى عصبات الحنين من الأساس .

أنت هناك مجنونة بما فى قلبك

وأنا هنا كنت مجنونا بالتأمل فى ما يعتريك .

وعبر المكان الزائغ ، أحسست لأول مرة أن لـــى بيتـــا ، وجهاتا تستطيع أن تلاطفني ، وتغدق عليّ طمأنينة بالغة .

الرمل الرمل ، عذاب قديم ، فرح يهز فراســـخ الـــروح التى تملكتها الدوخة . كان الغروب أليفا ، يعرج على بيـــت من الشجر وثغاء بعيد ... لا أعتقـــد أن ، هيئـــات عـــابرة لنزلاء المكان الميتين ، هى التى حاصرت كل شىء .

فرصة عينيك ضيلة

خلوة جسدى ليست دائمة

والشبابيك البعيدة ترمى وراء ظهرها مساء ونجومـــا وفضاء يصوغ خرافات متمكنة .

أميرة القلوب الهاتفة : إن المبنى الغير متكامل يذكـــر كل شىء ، ويمنع جدرانه من التذكر أحيانا فمســـاء جـــهز روحى للحب لا يمكن أن ينتظر ، ولا يمكن

أن يبدانى من جديد .

أنت تعرفين الديار الت تتـــهدم ، وتعرفيـن المســافات المكسورة ، لكنك فى سهو عن كل هذا مع أطفالك القادمين .

-2 -

عندما شممت رائحة المطر ، عرفت أننى فـــى مكـــان يسمح بالحنين . ولأننى كنت أتوقع صحراء مبلولة ، فقـــد مررت داخلى ، أنشط فرحة العثور عليك .

***

الليل يرشح من وهاد كثيرة ، الليل بهفوته الخاصـــة ، يمارس سحب أنفاسى بهيوليته المتلائمة مـــع مـــا يتعلـــق بأمورك ، أصعد فيه مجربا القبض على هنة تباغتنى منك .

فراشات صوتك المتداولة بين النور والحكايات السرية هى التى قبضت على وأنت تفارقين اللحظة لالتقاط أقراطـــك وذلك كملاذ لئلا تكونى حقيقة .

كم كنت أخشى الحزن فيك وأنا موبوء بوجهك المتعـــالى فى الفرح . وخيم على منافذ شوقى ما يكفـــى لأن تفتحـــى النوافذ جميعا ، وتركضى معى تحت السماء التى تمطر .

إن ما ملكته لاشىء : شهقة حـــزن فـــاوضتنى علـــى البلاد ، فلم أكن إلا نحيبا يسأل عنك أرضا مبلولة .

- ٣ -

غارات الليل ... سعار القمر ...

وكان شىء يمزق الطرقات أمامى ...

حاضرا منك ، ألثم المكان برغبة لم يصادف أن عنت على أحد ، واهبط حول الجذوع الشائخة لأشجار ظلت من الحروب ، أفسد رائحتى بأوراقها الميتة ، وأراقب أياما طازجة ، هربتنا فى قيلولاتها الشديدة الحرارة .

أحبك أكثر وأنت فى غاية التعب .

أحبك وأنت فى ذروة القلق .

كذلك ، حاصرنى شهرك القديم ، وأنت تذوبين فيه شوقا غير آبة .

أردد على مجاهل الليل كل ما كان فى وسعك ، وأنزع إلى أن أعود إلى ذاك المكان فى وقت متأخر ، إن كان بوسعى أن أكون كما كنت .

أشهق كيروسين المسافة بظلـــى ، وأحـــاول تنظيـــم الالتهابات التى تعرضت للقلب بلا سبب . وينـــادى صـــوت الطريق بما شاء ، إذ أنه كان لا يأبه أحد .

فقط ، ظل وصاحبه يفحص ما تعذب .

يقينا ، صارت الدائرة والضوء .

وسعت نظرات المهجرين طريقا أمـــامى عندمـــا رقصـــوا ، وتحرروا من شهوة الصغيرات .

صرت أبكيهم وأتجاهل ما يعض نفسى .

لقد كان الخراب البيزنطى محفوظا على السور الهائل ، وأشارت عتيقة كانت تقتل نفسها فى ممراتى ، حيث علـــى بابه [السور] خلعت شيئا ينتظر ، وتدور الســـماء تبحـــث عنى ، إذ كنت فى غفلة أبادل وجه النجمة بما يكفـــى مـــن الصمت ، واعتذر لشجرة الورد عن ما حـــدث لســكينتها ، فعاقبتنى بزهرة لصدرى .

وإذ كان الحنين يجرف ركبتى ، دفعتنـــى الظلمــة للخــارج ، متوترا فى صبر ، فصدمنى ما صدم العراء ، وشـــرعت أبـدل هواجسا جديدة تليق بأول لقاء .

الجدار الجدار

وعلامة فى الأفق تتقدم علامة .

فضاء كان يغلى بكامله بينى وبينى ، وتنطرد الوحشة أمام ريح خفيفة هبت بشذى قدومها .

أتحرك فى ماء مهجرى متسابقا على ضوء يفسر شـفتيها ، والنعاس الذى كان ينفذ يقظا وساخنا من عينيها .

ولم أكن برفق أتلمس الأصابع الممدودة ، كنت بلا صـوت أفسخ سنوات من الماضى .

فردنا مسافات تتلفت ، وغرقنا فى الارتبـــاك ، إذ أبــاحت الزفرات هواء قشر هدوءنا ، فتحنا الجنون علـــى باحــة فــى الحديقة ، ثم لم أكن أعرف أننى سكنت فى اللحظة نصف عـــام أو يزيد ، مهدوفا بما سقط على من شرفاتها .

ساعات الوهن الخالدة مرت بأيامى كثيرا وأنـــا أطـــالع
نفس اللحظة ، سحبتنى بذات قدمى إلى نفس الجدار ،
فأصابتنى فواجع كثيرة .

[ما كان كان]
ما كان لن يكون
ترددت من الهول أغنيات كثيرة
وقصائد [أقبل الحائط لانه رآك] .



الفقد

- ١ -

لن تشيخى ....، فأنت أم طويلة

تمنعين البرد والوهن

تظهرين فى وطأة الساعات ، فتنقذيـــن وجـــهى مـــن غياهب قاسية .

ولا أزال أقذف بجسدى فى أماكن المرور المتعجلـــة ، تلك التى بهرتيها ، وأظل ماطرا كسماء .

أما اللحظات العصيبة فصليبية ، ولا تتركنى إلا ناهجـــا فى غرف الحنين .

ميت أراقص شبحى فى الشهور العارية ، فرفة القلـــب تذوب منى كل مساء فى هوائك ، ويصادفنى عتـــم قاســى عندما ألج فوهة الوحدة بدونك .

وفى الأمام ، تتعثر الأيام بطيبة ، تنقل عنـــى عزوفـــا ربانيا ، كان يقسم الوقت أنصافا ، ولا يعير لغير أيامك منها شيئا .

أتكثف فى وعاء روحى ، وأفتش حقول الرغبة البعيدة .

أسرق من جداول الخلوة ما يجعل المـــاضى بعيـــدا ولا يعود ، فيكون الفقد ببشاعته الراصدة لكل حولى .

أتعثر فى شقوق الورطة بلا خطوات ... أصيـــح علـــى فراغات الحجرة منسيا فى الظلام ، فيهرم السقف ، وينـــوء وجهك فى الدروب بعيدا ..... وعزلة تتملك بكـــائى ، إذ أن الليل / الليالى لن تعثر فينا على أحد .

ملغوما بوجهك الفائز ، أراشق ببقيتى نجوما تســـللت من غيوم وئيدة ، وأعبث بما يسمى سريرى المعلـــق بيـــن رمادى والملامح السارية منك ... أداعب إسفلتا حقيقيا مـــن الهواجس ، ثم أرنو إلى شهقة الريح فى النـــافذة : [علـــه انت ... عله ...] ويموت ربيع آخر ، تابعته فى صمت .

والآن كى أتأكد تماما ، على أن أنام ، أعطر الوسادة بما جعلنى غير قادر أن أفك أسنانى منك ، لكن تبدأ جلدات عصبية ، وتنقى ما حول عظامى من الراحة ، لأرواح خيط النور بلا صوت ، أو أن الليل ما زال جاثما على هيئتى التى أقذفها بعيدا كى أتخلص من شىء ما ، وآراك .

تمتعنا قليلا

إذا ، لماذا يحدث الآن ما يحدث ؟

لماذا تندفع فى صمتى بعض أصوات هذيناها ؟

ألمح فى شبحى طقسا يغيم ، ألمح قمرا تأخذينه فى كفك ثم تفسرينه للطرقات .

عنيف ما يجرح الداخل ، بعيدة مازالت الوسادة ، أتأمل فيها أحاديث الليل واليقظات من أحلام لا أتذكرها فى الغالب ، لكننى مثلك سأفسر بعض الحلام بجدية :

(الباص الرهيب يحمل نساء برؤوس كانت كلها رأسك وتطل من نوافذه امرأة واحدة ، وبأبتسامة طويلة كانت تودعنى .... إننى أعرفها)

(المبانى المهجورة فى مدخل الصحراء ، والجبل الـــذى يزحف ببطء ...
لماذا أنت خلف آخر مبنى تتوارين فى فستان لم أشاهده عليك ...
يبدو أننا خلف المبنى تبادلنا شيئا ممنوعا وإلا لما اســتيقظت خائفا وحولى رائحة منك)

(وفى مرة كان الطريق صاعدا صاعدا وأنــت تزيحيــن غيوما عن وجه أبيك ، لم أعثر عليك ، فقــد غمرنـــى مطــر غزير لذا جلست أجفف ماء عن وجهك ، وعندما اســتطعت أن أزيح الثلج كله ، ابتسمت ، فطرق الباب شــخص أصبحــت أعاتبه فى سرى كل صباح)

(فانوس الاضاءة الذى كسرتيه ، وعندما أضاء جســدك المسافة الفارغة فيما بين السرير والنافذة ، سمعت منك نــداء ، فركضنا خلفه حتى اختفينا ...) .

البعيدات ...، تلك سحابات تأخذنى ، تشدنى فى أعمـــاقى
كى أعثر عليك وأنت متلبسة بالغناء ، وبعد هناء طويل فقدنـــا
المساء الذى تشابكت فيه أصابعنا ثم ضعنا فى ابات من الليل
دائما أصنعك من أشياء كثيرة ، دائما أمنحـــك للـــدروب
اللتى تقفز ، حتى وأنا جالس أنتظر الدمع .
لكن الذى يتضح دائما أمامى أينما وليت أستطيع تفاديه ،إ
إنه يتعلق بما شاع فى قسمات وجهك من أمومة ، حين كنـــت
تشكين من خوف داخلى تملكك لتسعة أيام دونما
سبب .

لم تكن مجرد شكوى ، كانت وجها يفسر ذاته ويـــهاجمنى
بلا مقدمات ، وأنا إذ كنت أتلاشاه فلا يعنى هذا أننى لا أحبـــه
بل كنت أخشى أن أفقده ، لذلك ، كنت أعبر الطريـــق الـــذى
أتذكر ذلك فيه مرات عديدة فى الوقت الذى تكون الشمس فيه
تناهز الظهيرة ،
ثم أعود بعرق غزير .

- ب -

عرفت : لا يوجد مكان آمن غير وجــــهك آنــذاك ، كـــان قديرا ، يتدفق بلا مخططات ، جربته فى الليالى الموحشة ، فكان غرورا يهاجم كل شىء ، لذلك أستطيع أن أفســـر الآن لماذا تندفع كراسى الحجرة مرات عديدة عندما يكون عنــدى فى هالوكة الوحدة ، أو لماذا تنفتح النافذة من تلقاء نفســها ليطل ذاته بحنان بالغ .

أعرف مدى الرغبة فيه ، أستطيع أن أحدد خواص الفم والشفتين ، كذلك وفى مقدورى أن أعرف ما تعنيـــه ال (REM) لكنى أعترف أن المقياس الحقيقى هـــو ليـــس هذا ، بل هواء كان هو المقصود ، أنت تبحثين عنه بعينيـــك وقد كنت متأكدة أن مكانه الحقيقى قلبى (هكذا قلت) .

أنا سعيد بعقائدك الجديدة ، سعيد بصيغة إيمانك القويـــة، لذلك لا أستطيع أن أرد لك شيئا ، ولا أستطيع أن أتخلـــص من يديك إذ كانتا تطوقانى بلطف ،
وترددين فى كلمات متقطعة (المصير - المصير) .

سماء ترتفع بكامل اسرارها ، سماء وكانت وقد كـــانت
تعترف بالكثير ، أعرفها منذ الشهور الباردة ، وفى أحيـــان
أحملها ما لا تستطيع ، لانها بحنان ولطـــف تـــذرف معـــى
الدموع فى الحجرات الخالية .

والليلة ، بى ما بالسماء ، ولا يمكن الهدوء هكذا دونما
إعادة وافية لبعض الشوق أو الأماكن حين تفاجئينها

أولا : فى عربة الصباح المبكر قطعت مسافات طويلـــة
فى إتجاه الشمس ، لقد كـــان العثـــور عليـــك مـــن بنـــات
المستحيل ، شاهدت الشواطىء البعيدة فى خاطرى
وتنفست رائحة الهواء البرى حين فى الصباح ذابت قطـوات
من الندى وزحف من الشمس شعاع أيقظنا .

يداك بطولهما المتناسق يقشران أوراقا معروفة لدينا ،
فى حين كنت أنا أجمع الأغصـــان فى كومة واحدة ، لاننى
شاهدتك فجأة من بعيد وأنا فى الحب ، وبعد أن تأكدنا من
أن الحرارة تكفى ، أشعلنا نار صديقاتك فى المكان المناسب
وتوترت أصابعنا لكى يطرأ على الصحراء صوت آلة

العود . بمهارتك غنيت ، وبمهارتك أنا غنيت لأن نظراتـــك المثيرة تتنقل من باب قلبى حتى ذاك الصوت البعيد .

ثانيا : تتابعنا والبرد برد ، حفظت أســـماءك الجديـــدة .... وإذا تشابكت أجنحـــة طيـــور فوقنـــا تبادلنـــا كلمـــات رومانتيكية لكنها لم تسعف الأمور بشىء يذكر ، الذى أنقذنا آنذاك هو الصمت ، نعم ، تدافعنا فيه مثـــل نـــازحى الحروب ، ومن ذاك اليوم لا أدرى بأى المجرات توزعنا

صار فينا شوق أن نعود

لكن الدروب التى فينا لم تكتمل بعد ،

تتبعناها نبحث عنا

لقد احترقت أصابعك بطريقة ما ، حين كنت أتابع باهتمـــــام

كيف أسمى النجوم باسمائك

لم يحدث شىء

حدث أن أنفاسا متعبة كانت تتردد بيننا وبين السماء .

***

ينبجس فى أعماقى ما يكفى من الحنين .

تنبجس ليلات صافية ، كان قد مـــر عليـــها الخريـــف مملوءا بالتهيوء . ولا شىء يبرحنى ، لاشىء يســـتطيع أن يعيد ما حدث للمكان ، حتى وأنا أحاول ، تـــهيأتنى دمـــوع كثيرة ومتعبة .

كنت أسترد نفسى من الفراغات الشاســـعة ، أدحرهـــا نحوه ، وعندما أصل ، أتبين – بيقيـــن الله – أن اللحظـــات التى غافلتنا فيه [المكان] هامت بعيدا ، وتركتنا معه نتذكر وفقط .

أعض على الشفاه الميتة ، وأستبيح مساحات شاسعة مـــن الهاوية لكى أصادف نجمة تدلنى عليك .

***

مع النجوم ...

مع المطر ...

ذلك ، لكى أضيع – من تلقاء نفسى – فى جزر الحنين التى دفعتيها والمستحيل يتدفق فى وطأته .

سحبت صيفا كاملا فى همسة واحدة .

والمشاهد التى أعادت لى الفقائد كثيرة .

تأملت فضائى طيلة الوقت كله ، ولم أشعر إلا باغتراب حاد . [كلانا غريبان]

ففى ما كان يرتجف فـــى عروقـــى الداخليـــة :
وجيب قلبك يحيا مثلما كانـــت أول الحياة .

وأتبين :

(عشرين يوما فقدتك عبر مهماتى الغير شرعية ، عبرت فى ليال شتوية - برفقة وجهك - كل الشواطىء والأقمار ، وأنهكتنى المقامرة ، فصرت لا أعرف الأشياء إلا بانطباقها على شىء منك ، تعذرت الصلات بينى وبين ما أرى ، فحينا كنت أسمى الأشجار باسمك ، وحينا كنت أغافل النحيلات لأعرف إن كنت إحداهن .

تملكنى الهروب الدائم إلى علامات كنت أحن اليك عندهن ، وصادفنى حزن متدرب ، كنت لا أدفعه إلا بليالى ابتساماتك الغير مستعملة .

* * *

مشقة تبدأ أعمالها فينا ، وعندما أصير صبورا كما يجب ، لا تصبح المسألة متعلقة بك ، فكل ما طالته الخيالات يبدأ ، فأشعر أن بى حاجة لا نهائية لفعل شفتيك فى غيبة النور .

تماما ، وبقدر الفسيولوجيا ، يأخذ كل شىء وضعه الحقيقى (والذى لا يبدو لى مريحا) ... حينما أتنفس من النافذة ، عاجزا عن فعل أى شىء ، متلذذا بلحظات هى ليست رومانتيكية ، بل لحظات تضىء لى مشاهدا لا تثبت على شىء ، فأتيقن أن السموات بعيدة مثل كل الأمور .

لم أقرأ لك من خلوة العناء شيئا . الذى حدث : أننــــى كنت أداعب بعض الورود وأنت تتكلمين ، فاضطرب بذلــك الصمت ، وخطونا فى متاهتنا الأمينة ، تملكنا ما لا يسعف ، ولم أتعلم كيف أقيس وحدتـــى بطولــه ، لانــك شـــهية و لاتعرفين الخرائط التى نبهــت الذاكــرة فى أعماقى .

العبارات القاسية للعاطفة كانت بحوزة كلانا ، مثل سكين يقضى جميع أوقاته فى العمل ، لأننا نبتكر خطواتنا بلا رحمة ، وندون فى مشهد غير خيالى :

الألم أبعد من أن نتعرف عليه
الألم رقيق .

وتعاونت أشياء كثيرة كى تثأر منا ، على أننا لسنا المعنيين ، فحديقتنا تتسع لنباتات الظل ، وبعض المحارات العتيقة ، وفى كل يوم لا ترنو عيوننا إليها ، بل ننظر بدون أمل :

فالبعيد البعيد مستغرق فيما إذا كنا نحلم أم نفكر فى البكاء .

***

أحوم حول أشباحك كطفل هجرته أمه ، أحوم وفى قلبى حنين الرعاة الأولين ، فبعد قليل سأتأكد أن الرقـــة البالغـــة تعذب .

والعتمات الجليلة تداخلت مع المطر ، وأنا مـــا زلـــت أبحث عن روحك العصية .

ولقد صادفت الطريق حولا فحولا ، ولـــم أعـــثر علـــى شىء ، فقط روائح وخيالات ، صرت أهم بقصدها كل مساء .

ومازلت بوجه لا يهدأ ، وســـرحة غافلـــة ، لا تذعن إلا لفضاء هائل ، أو لما حـــدث فى الطريـــق العابر ، عندما حلمنا بشىء غير مقصود ، فانفصلنا ، وتاهت الطريق ...

كل ذلك يحدث الأن ، وأنا أستيقظ فى صبيحة لا أعرف إن كان سيصادفنى مثلها من الحنين شىء بعد ذلك أم لا ... لقد تعرت المسافة فى أيامنا ، فابتعدنا ، وماتت النبضات فينا .

***

فصول جديدة تمد أعناقها للغيم

وأنا – بفضول – أحاول تنبيه أعصابى من غفوة الضواحى ، لتنجذب الأعوام من أطرافها ونتغازل .

فالوجوه التى تصف نفسها بحيرة ، ووجوه تغيب ... تضع السماء فى مآزق أمامى ، فلا أجد – عند ذلك – مفرا من اضطرابات عينيك إذ تحملان الأمور بعدا مبهورا بالواقع ، ثم – فى غير اضطرار لان تكونى تلقائية – أرانى فى حزن يمتد من ذات العينين ، فنحاول أن نبكى ، نحاول أن نعلق على غرور العثرات بالتهاب حميم .

أقصد أن عامين عبرا بهدوء ، وأقصد أننى الآن فى انتكاسه زارتنى منذ الصباح .

بحارا أنهج فى خلجان الله ... مبلولا بحنانك الذى يشاغل قصد المدى عندى ، وقصد الحرير المجهز بكثافة حول ساقيك .

إننى فى عمل جاد منذ الصباح ، أصنع لك قيودا من
الخواطر ، وذلك ، لكى لا أكون عاطلا فى المساء (حيث
بإمكاني أن أجد عملا وهو : تقطيع تلك الخواطر
بتأن شديد) .

***

الحب مرشد العصور التائهة ... إننى على أسواره ، أنوء
بأعمالى التافهة

***

مربعات من الحنين
تظهر
وتحتها أزحف .
عليلا أستقدم الغيوم بنهم
وأفتش فى أسرارى عن محيط خصرك .

والأن ، فى سمائى بعض الضمور

فى سمائى بعض الخريف والأغنيات الهادئة

لذلك ، احاول فى أجزاء الليل المتآخرة أن أقترب قليلا مـــن شهورك ، محزونا أو هائما ، فالتى تغير دموعى زهـــور لا تختلف مع خطواتك .

كأننى أبوح ...

مفتاح الليل فى قلبى ، مفتاحه فى شفتيك .... فى صوتـــك ، صوتك القادم من معجزاته الغيبية ، يبدد الأوقات الســـيئة ، فيمتد الحب ، خارجا للضباب .

أكون معك : غسقا أو زجاجات فودكا ....نمضى نحـــو جزر تغرق ، كى يغسلنا الصمت فى هدوء .

***

شىء يملأ الدنيا
ضئيل وغير معروف .
الشجر يرقص حوله .... ، يبكـــى .... ، والموســيقى تعترف بصمتها ، كما أنه فى شيخوخة الطرقـــات داســتنى أحلامك . عرفت الهجوع ، ومررت غير عابىء مـــن تلــك الطرقات . كأنما الأغانى حنين يحصــد قامـــة المســتحيل ، والحزن المهذب لا يلتزم بشىء .
غارق فى مأزق هيئاتك الشاملة ، أحمل أسرارى أكــثر مما يجب ، وأمضى بعيدا .... بعيدا
علنى أعثر على أنفاسك .



أبعاد غير مضمونة

فصيلة وجهك الناضج ، كانت تتابع الموسيقى ، ثم انفصل كل شيء عنى ، لأجد أن أبخرة من صوتك تصعد ، كانت تصعد وفقط .

لذلك ، أغلقنا الماضى ، وقذفنا النجوم بألفاظ فاحشة وما زلت أسمع صوتك الذى لا يتابع غير ما كنت ترغبين أن يكون حزام خصرك عليه ، لقد نهجت أنفاسك فى شرائح الستربيتز ، وعلقت على دوخة المدن – الهاذية فى رأسى – قطعا صغيرة من ملابس كانت محرجة للجنسين .

ذاب الضوء ، وعلكة لسانك كانت ما نحن فيه مما يشبه التمدن ، وعرضت عليك كذبة غير كاملة ، لتعرفى أن شيئا سيسقط منك : ربما الليل ، أو مشدات صدرك .

لم نبدأ بعد

عذرا ، أنت لن تبدأى

فبوسع انتشارك أن يعمى .

وتصعدين بلا خجل

أقول : علك تنهكين السخونة

وتقولين : ....

إذن ، لن نتداعى ، سنصعد على مرفق واحد ، ولن نبكى ، سنشاهد الزبد الساخن فى الطرقات الآخذة فى الاتساع كى نستطيع أن نحلم هناك أو نسوق أسرابا من الغيم وبهدوء : لم يحدث شىء ، رغم ضجيجك

وهياج ال DNA

ما الذى ساقك فى شهورى ؟

....

ما الذى أضفى عليك الخرائط الخاصة ؟

....

استمرى ، فلن تدخل الريح ساحة تشبهك .

إرفعى – على قدر المستطاع – كليتيك لكى نتخيل من جديد

فلربما استطاع ذلك أن ينفينى ..... ربما .



الغرائز المفكوكة

وعرفنا بأن الضوء جهزك فى أماكن الاستقبال بـــدون أن يعرف بأن لك مالا نستطيع أن نتنبأ به ، لذلك ومثلـــه ، استقبلناه الذي بلغ من نفسه أن يدهن ظهرك بما لدينا مـــن رغبات .

وليس فى خيالك شىء من الزهور .

تنعطف عليك عيوننا ، فتشعرين بالملل ، لان ســـيقان الرغبات التى بنتها أعصابك مدللة ، ويشوبها شـــىء مـــن الانحراف الطبيعى ، ذاك الذى رأيناه يســـبح فلـــى خرائـــط طرفية لعيونك .

نسيج خلوى فى كل أجزائك ولا يهدأ ، إنه يعيـــق الخمـــول النسبى فى أرجائنا ، ثم تأتى الريـــح ، لنســـتقبل الكائنـــات المفكوكة بدون احتمـــال أن نـــرى صوبـــك أى نـــوع مـــن اتجاهاتنا التى تضل ، كى لا تسقط على هوائك الذى رأيناه

- الآن - يتوقف ما بين وجهك وغرائز المطر .

مساحة ضيقة

وأنا أفكر فيك
أدفع بضع شجيرات فى الصقيع ....

لأجد حبا يتهالك على مقعد .

أحذر الجهات وأبني هندسة تنقذ المطـــر القـــادم مـــن الرعى ، ورائحة بعيدة تمور بدنى ، تشنق كل أنفاسى علـــى منجل الحديقة .

يا زجاج .... ، القبلة ترحل فى الفضــــاء ، وأنـــا للخلـــف مقذوفا فى الهلاك ، أنادي بعطش سنين شـــبعت قتـــلا فـــى نفسى ، وأصير هراء كلما نادت .

مكان القدم أصير شجرة نسيتها الريح فى شتاء هـــاجم كل القلوب التى لم تعد معى ، راصدا – ما زلت – ثلاث ليال تتسول .

انتبه ... ، البرق يهدم ما تبقى .

... كان صعود الغبار علامة تخالط جنونك كل مساء .

حديث واهن ... ، كأنما حصاة رشقت قلب ضريـــر ... وتعجل الكون فى لحظة شربت خمـــرا كثـــيرا ... فســمعت رقصا غير آدمى ... رقصا فى صدور كثيرة ، وشاهدت سكينا يعول طفلة .

أخذت فى صوتى طرقات منهوبة ، فنامت على جـــنزير الباب ، تثقب السكون ببضع رموش ، وتنآى ...

سويت فى بالى صدورا وشهقت العصور المردومة ...

... تنفست ماكان أليفا : شتاء البيت والسن المردوفة .

ساطور فى لحم الدنيا ... ، نعم ، بهذا وســـعت علـــى عنقى ، بلغت خوفا حقيقيا كان قد فضه الوقت وهدأت ، لكن الشمس التى تهري أساطير الجدات كانت أمامى الى البحـــر ...، والبحر يدوخ عندما أهامسه باسمها ،لذا تذكـــرت لـــه علامة تفلت من نبلة الحساسين كلما توقفت الظـــهيرة فـــى صمتى .

وكان عام فى كفى ... لكن العام مولود غـــير أشـــقر ، يخاصر نومى ويدهن الكوابيس بمفرده .

والذراع التى بلا ساعد حملت دقيق العياد على شرشف أسود ، وكانت تهز بخت الطفولة مـــن معصمـــها ، لتلتقط من ضوء الشارع بعض الخطر .

خيمة تسبح ... ، وفى مفصل السراب كانت المـــرأة – التى نامت على القلب ســـنينا طويلـــة – تشـــعل الثقـــاب ، وتسوى لأجنحة الحمام بيوتا هجرها رعيان بيـــن عيونـــهم سنوات ضوئية تبكى .

المرأة ترتجف ، وتدور حول بناية العشب والنخالة . مفرق شعرها النابت فى كلية السماء سيرث منـــى ســـهوبا وسهوا . لقد كان الغياب قميصا جديدا ... دجاجـــا ينبـــش زبدة الروح .

وكما يعلن التلفاز الحرب ، أخذت جسدى على هاويـــة تفقد نفسها فى كل ليلة ، عصبت مناقير القطى على شـــفة مغسولة ، وسلخت من جلد الليل سنوات بجبال كثيرة .

أتت ...... ، حزامها فى خصر الدنيا طرقات وخناجر .

ولقد حذرنى نهار يفر من النوم : بأن النبـــض طـــازج ويضىء .

أخذ منى مواعيد النجوم والصمت الهانىء ، فصـــرت فى المدن المرصوصة بيننا ، صرت فى متاهـــة تركـــض ، أعبىء نفسى فى خطوات ممزقة ، وأعـــود راعفـــا مشـــية اللهاث ،

أحك الحائط الخيالى ، وأبنى صخورا بينها سهام وقلوب تمكث ، بينما يتزاوج النخيل والشاطىء .

أصحو ... أنام ، يدوخ همسى ، يضطرب كل الليل على سرير الهاوية ، وأسمع – لأول مرة – جهة واحدة تنادى .

نعم ، أحببت ما كان يمر ، وفى مسافة البندقية ، حشرت وردة ... بل ورودا ، وتماديت فى سكب البنزين أمامى ... خلت ملائكة تملأ شفتيها وعيدا .

يسبقنى البلوط وقشر الطاقة .

أزرع الوردة فى ضباب شارع فرعى ، وأتوه .... أسرار تتقيح .... ، فناء المطر .... ، وبصقة على الصدغ تمشى فى الليالى التى لن تملأيها .

كأنما كنت غير هذا ، أزيح آفاقا ثم أصفها ظهرا لظهر، لان سربا من الغيوم سافر ... ، سافر بغيمتى الصغيرة .

أتابع غيبوبتى من نافذتها الوحيدة ، ثم أمزق مساكن الهواء برجفة ضعيفة .

دافىء هـذا الليل عندما سرقـته من بدو يخاتلـون اسماءهم . كانت لهم بيوتا بعيدة ، وخلفها كـانت امرأتـى التى عبأت لها فى هواء الغيب أقمارا وشـيكولاتة ونصـف قرن وتبغا وبعض الشرود .

يدهنون الشوارع بأنفاس موتى الإبل ، وقـد اهـترأت على جناح فى شتاء ... ، كان جناح يفري مهاما قديمـة ، لذلك عصبت مطارات ومدنا على ساقى ، وحينمـا فاجـأنى فمها ، صرت غريبا كما يجب .

الموت وأنت : شبهي .

خلف مرايا ... خلف دموع : ليل يبدأ . وأمام النـافذة ما لا يقل عن آلاف الأساطير تبيض ، وأنت بلثغة تنزعن مـا خلفك ، وبرفق يسهب صوتك فى الغناء .

وعنى لا شىء !

الرجفات

فى ليلة مجنونة وأصدق أنها غائمة ، اعترانى المطـو وكثافة الماضى .

وإذ تحلق قلبك حول العاصفـة المفـترض أنـها فـى الخارج ، وجدتنى أدرب الحجرات على تسـلق الحوائـط ، وينمو عشب قديم فى الداخـل ، يزاحـم السـرير ومتكـة السجائر ، لان القصر بفضائه الشاسع ، كان حريصا علـى دفع الأصوات القادمة من البحر إلى مجالي .

أعود : الظلام كامل .

ولا شىء من الصدفة يسمينى بأحمد ، فقط سيول تضج شواهدها فى أيامى ، وصديق يمد حلقه فى زجاجات فارغة ، ويدعك قلبى بليل طويل .

اعتقدت أننى سنوات تبكى ، واعتقدت أننى أفصل أصابعي مخاطما للخيل ، فاجتاحني من أول الحديقة صهيل دفع البحر إلى أن يتشرد ، وبذلك انتهيت إلى ولوجك الخفيف ،حيث كان لا يجبر الباب على أن يفتح كاملا .

ومازلت تمسكين المقبض ، فحصت عيناك أرجاء المكان : ما من غريب ، حيث نشأت أول ابتسامة بين شفتيك وأول رجفة فى أعماقى .

* * *

وبهذه السرعة غمرت الظلام ....

أرى رجفة تهز ركبتيك . والذى غاب فى همسة ظهر أمامنا ، وكان يعصرنا بشدة ، ثم استعاد أنفاسنا ليدفنها .... هاجم كلامنا ليضل .

أعتقد أننا سبحنا طويلا فـــى مســاحتنا الداخليـــة ، وغطينا كل هذا العرق بملاءة خفيفة ...شرعنا فى الرقــص، وكان رقيقا ، ثم تدافعنا فيه إلى أن صار شتلات من نباتــات الزينة ... تقاسمنا الحب وبعض الخوف .

سجائرك أحرقت الجزء الأسفل من الثوب ، لكنك لـــم تكترثى ، بل واصلت بوجهك ، مشيت بعينيك علـــى النــور والأحلام والجزر الممنوعة ... تدفقت بأنفاســـى ، لينـــهض العالم من حولنا هاربا إلى الله ، ونظل كلينا على شـــاطىء بعيد ، نحرق أخشابا فى موقد الريح ، وننظر إلى أصابعنا .

لا تعودي

أدخلى إلى سريرى ، فالبرد أقوى ما يكون الليلة ، كمـا أنها قد تمطر ، وتبل ثوبك الجميل .

رقم الإيـــداع : ٨١٣٨ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولي : I.S.B.N

مطبعة الفارس العربى بالعريش